البطل العارف

المقدمة

كان كابن بطوطة في الترحال، وكالعارف بالله بالإيمان، وبطل من الأبطال. إنه بطل واسمه عارف وهو العارف بالله.

الحياة مسرح يقدم فيه الشخصيات أدوارهم المرسومة لهم ثم ينسحبون. حقا إنها أدوار مخطط لها مسبقا من قبل الكاتب، ولكن الكاتب اختار الشخصيات التي تتناسب مع هذا الدور أو ذاك وهو يعلم كيف سيتصرف كل منهم فيرسم له الدور الذي يناسبه.

سأقدم لكم مسرحية من ثمانية فصول وهي قصة حقيقية جرت أحداثها في أوائل القرن العشرين، وسأسمي الفصول باسم الشخصية الرئيسية التي تلعب دورا رئيسيا في هذه الأحداث.

لن اسرد لكم الأحداث، بل سأترك المسرح لهذه الشخصية أن تسرد لكم دورها الذي قامت به عندما كانت على قيد الحياة.

الفصل الأول:

زينب (1880-1957)

انسحب الستار وظهرت زينب على خشبة المسرح تحيي الجمهور ويحييها بالتصفيق.

زينب: لقد جئت للتو من عالم البرزخ. كي أسرد لكم ما جرى لي في حياتي بعد أن دعتني حفيدتي وألحت على ذلك، وقالت أنه عمل خير للمشاهدين كي يتعلمون منه الصدق، والإخلاص والصبر. أنا كما ترون في ريعان الشباب لأن بعد الموت لا زمان ولا مكان ولا شيخوخة ولا هرم هذا لمن كان تقيا. والحمد لله الذي رزقني هذا المقام بعد أن عانيت الكثير في حياتي وصبرت على محن الزمان لأني علمت أنها منه، الرحمن الرحيم، الذي لا يظلم، بل هو العطاء كله في السراء والضراء. سأجلس معكم في الصالة لأشاهد أحداث حياتي وأنا اسردها وترونها وكأنها فيلما سينمائيا تجري أحداثه أمامكم بالفعل وتظهر على شاشة المسرح.

أنا من المعرة وأبي رجل تقي جدا. كانوا يسمونه الحاج عوض ويعتبروه وليا بسبب استقامته وحبه لله وأهله. ماتت زوجته الأولى بعد أن أنجبت له ولدان، محمود ومصطفى. ثم تزوج أمي كوكب التي كانت تصغره بأعوام كثيرة وأنجبتني عام 1880. كان يذهب إلى الحج في كل عام أملا أن يموت هناك ويدفن في تلك الأراضي المقدسة. تعرف على موظف كبير في الدائرة الحكومية في المعرة، والذي كان في الأربعينيات من عمره، أعزب ويفتش

عن ابنة الحلال وهو يدهى بشير. علم بشير أن لعوض ابنة جميلة فخطبني منه، ورضي أبي لأنه كان ينوي الرحيل إلى الأراضي المقدسة بغية مجاورة الرسول صلى الله عليه وسلم لعله يموت هناك. عارض أخواي هذا الزواج لأنهما كانا يريدان أن أتزوج في المعرة بسبب صعوبة التنقل بين البلدتين بالإضافة إلى فارق السن الذي كان بيننا، فأنا في الحادية عشر من عمري، وبشير في ألأربعينيات. ولكن أبي أصر على ذلك وزوجني من بشير. باع بيته وأملاكه ورحل إلى الحجاز وبقي هناك وتحققت أمنيته، فتوفي هناك رحمه الله ودفن في البقيع كما كان يتمنى.

ذهبت مع زوجي إلى حلب وسكنت مع عائلته الكبيرة في بيت كبير كالقصر وكان يدعى "بالقناق" كما ترونه مصورا على شاشة المسرح. لم أجد المعاملة الحسنة من أهل زوجي، فقد كنت في نظرهم من الريف وهم كانوا من المدينة، فنظرة الاستعلاء كانت تضايقني ولكني كنت أتذرع بالصبر. رزقني الله تعالى بولد، ولكنه فارق الحياة عندما كان صغيرا لم يبلغ العامين، ثم أنجبت ابنة سميتها قدرية (1911)، وولد سميته عارف (1913). توفي زوجي ولم يبلغ عارف السنتين من عمره.

طردتني عائلة زوجي بسبب الفرق الكبير بين عائلتي وعائلتهم. لم يكن لي أحد ألتجئ إليه. إخوتي من أبي في المعرة وكانت الصلة بيني وبينهم قد انقطعت منذ زواجي. بت أنا وأولادي عند أحد الأصدقاء الذين استأجروا لي بيتا صغيرا يؤويني وأولادي. بدأت أسعى كي أطالب بحقي في الميراث فقد كان زوجي غنيا يملك الأراضي والضياع. تعلمت التطريز كي أعيل نفسي وأولادي بعد أن نفذت النقود التي كانت عندي من الأساور الذهبية التي كانت في حوزتي. وبدأت أسعى كي استرد ورثة أولادي من عائلتهم التي تنكرت لي ولهم. ذهبت إلى المحكمة، وهناك تعرفت على قاضي رأف لحالي وبدأ يسعى لي باسترداد حقي وحق أولادي، فأعجب بي وطلبني للزواج. كان من عائلة رفيعة من مدينة دمشق واسمه محمود. لم يكن لدي خيار، فقد كنت وحيدة، وفي حاجة لرجل يشد أزري في المجتمع ويحمل عني هم إعالة أسرتي. تزوجته وأنجبت منه طفلة جميلة سميتها نظمية. صدر قرار نقل زوجي إلى دمشق. فاشترط علي أن أترك أولادي، قدرية وعارف عند أهلهم وأذهب معه. لم يكن هذا شرطنا قبل الزواج، وكنت قد قبلت الزواج منه لأنه رضي بحضانتي لأولادي، والآن يخل بالشرط الذي قبله. كانت عواطف الأم عندي أقوى من كل حب في قلبي لأي رجل كان، فرفضت شرطه، فتركني وترك معي ابنته نظمية، إذ كان يعلم مقدار حناني وتعلقي بأولادي، فلم يشأ أن يحرمني من ابنتي الصغيرة الرضيع. عدت لعملي في التطريز وعشت على الكفاف إذ إني لم أحصل على حصتي وحصة أولادي من الميراث بعد.

بعد موت أبي، تزوجت أمي، كوكب، من شيخ عالم يدعى الشيخ الزرقا الذي كان عالما فقيها وعارفا بالله. كانت أمي جميلة شقراء ذات عينين زرقاوتين، ولم تكن قد بلغت الأربعين من

عمرها عندما توفي والدي. تعرف عليها الشيخ الزرقا في المدينة المنورة بعد وفاة زوجها، إذ كانت وحيدة ليس معها أحد من أقاربها. كانت شاذجة جدا وكانوا يدعونها "على البركة" من طيبها وعفويتها. رأف الشيخ الزرقا لحالها ووحدتها فأحاطها برعايته وحنانه وأوصلها إلى حلب وعاشت معي فترة ثم تزوجها وكان نعم الزوج الرءوف الحنون حتى توفي فعادت للعيش معي.

في عام (1927) سمع ابني عارف الذي كان قد بلغ الرابعة عشر من عمره عن أميركا وأن فيها مناجم الذهب وأن كل من يذهب هناك يصبح غنيا يملك الملايين. فأصر على الذهاب. وكنت مولعة به جدا ولكني لم أكن أرد له طلب. فبعت أرضا لنا وأعطيته النقود بعد أن وعدني أن حالنا سيتغير بحصولة على الأموال الطائلة التي سيحقق بها كل أحلامي وأحلامه، ويربي أختيه وينشأهما تنشأة كريمة ليس فيها حاجة لأحد. وعدني أن يعوض لي كل ما عانيته في حياتي ويغنني عن العمل بالتطريز لإعالتنا.

أيها السادة والسيدات، لقد شاهدتم معي هذه الأحداث تصور لكم على شاشة المسرح، والآن لأدع الدور لابني عارف كي يكمل القصة عليكم.

الفصل الثاني

عارف (1913-1998)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أنا أيضا مدعو كي اسرد عليكم هذه القصة التي جرت عبر التاريخ، وقد رضيت أن آتي هنا وأسردها لا لأني أريد أن أكون قصاصا، بل لأن ابنتي أقنعتني أن لقصتي عظة يمكن أن يستفيد منها المشاهدين، فرضخت لإلحاحها وأتيت من عالم البرزخ الذي أعيش فيه براحة وطمأنينة بعد أن عشت في حياتي الدنيا حياة مليئة بالأحداث المثيرة التي أكاد، أنا نفسي، لا أصدقها.

ترعرعت في أحضان أمي الحنون الوفية التي هي منبع الحنان والعطاء والتضحية، كانت تعمل في الليل والنهار في التطريز كي تعيلني أنا وأخواتي، وكنت أشعر بعذاب الضمير إذ كنت عاجزا عن مشاركتها هذا الحمل الثقيل. كنت في طفولتي أتردد على بيت جدتي كوكب وكم كنت أسعد بحديث زوجها الذي كنت أعتبره جدي، الشيخ الزرقا رحمه الله. كانت كلماته وكأنها حفرت في طيات قلبي تطن بأذني أينما ذهبت، وتذكرني بمحتوياتها أينما حللت. كان يقول لي: يا ولدي احفظ الله يحفظك، كن مع الله ولا تخف فهو دائما معك. لن يصيبك إلا ما كتبه الله عليك فكن جريئا وافعل الخير ولا تخف من أحد. لا تخالف ربك ولو بشعرة تراه

معك دائما. اجعل الذكر في لسانك، وحبه في قلبك وافعل الخير وارميه في البحر. إن أنت ساعدت الناس، يرسل الله لك من يساعدك في المواقف الصعبة في حياتك.

شعرت وأنا أستمع لكلماته النيرة وكأنه يكوّ ن شخصيتي ويصقلها بيديه كما يريد الله ويحبه. كان رحمه الله، مثلي الأعلى في أشد المواقف في حياتي.

عندما بلغت الرابعة عشر من عمري، شعرت أنه آن الأوان كي أساعد أمي المسكينة. كنت رجلا طموحا جريئا ومقداما. فأردت أن أتسلق جبل النجاح بأقصى سرعة وأمسك براية الوصول بعد النجاح وأنا فخور بها كي أريح أمي من عناء الجري وراء لقمة العيش. فسمعت أن ابن عم لي قد سافر إلى أميركا الجنوبية وهناك أصبح رئيسا لشركة تنتج الذهب الموجود بوفرة في تلك البلاد. كان طموحي أكبر حتى من أحلامي وآمالي. استولى علي حماس الشباب، فأصررت على السفر وكان لي ما أريد.

الفصل الثالث

في الإرجنتين

أيها السيدات والسادة، بعد أن شاهدتم على شاشة المسرح هذه الأحداث العادية التي يمكن أن تجري لكل البشر، دعوني أنقلكم إلى عالم جديد، عالم المغامرات والمفاجئات. سترون الأحداث على الشاشة بينما أعلق عليها وأشرحها لكم.

ركبت السفينة التي ستقلنا إلى أميركا الجنوبية عبر المحيط الأطلنطي، وكان هدفي الأرجنتين حيث يسكن ابن عمي عادل هناك. وكنت أظن أنه مدير لشركة الذهب، وهو سيجد لي عملا رابحا فور وصولي هناك.

كانت رحلة البحر هادئة والحمد لله، تعرفت خلالها على أصدقاء وصديقات من النساء الأجنبيات وكانت أول خبرة لي في الحياة. كنت رجلا يسمونه المتعطش للمعرفة. كنت أحب أن أتعلم كل شيء، ووهبني الله تعالى من منتة وكرمه مقدرة على سرعة التعلم وسرعة موازنة الأمور من بداياتها. فكنت أخمن نهاية الأحداث وكان نادرا ما يخطأ حدسي في تقييم الأمور والتنبؤ بنهايتها. بعد أن نشأت في جو مدينة حلب وتوجيه أمي التقية وتعاليم الشيخ الزرقا، وجدت جوا مختلفا تماما عما كنت أعيش فيه. فالشباب الذين تعرفت عليهم كانوا جسدا بلا روح. لا وجود للروحانيات عندهم، كان جل همهم المادة وإشباع غرائز الجسد، وكانت الفتيات غانيات جاهلات كل الجهالة بالروحانيات التي أمدني بها عالمي في حلب. كنت صغير السن كي أوجه غيري. لم أكن أستطع توجيه أحد، فهم بعيدين كل البعد عن التفكير بالله وتعاليمه، فقررت أن أحفظ نفسي من ماديتيهم وأعيش مع الروحانيات التي نقشت في فؤادي، وأتظاهر بمجاملتهم في ظاهري. كانوا يشربون الخمر ويعاقرون النساء

ويدعونني أن أفعل مثلهم، ولكني كنت أتذرع بالنعاس وآوي باكرا إلى فراشي كي أبعد عن عالمهم الذي كنت أراه مقيتا ومظلما بعد أن كنت أعيش في عالم الأنوار، عالم أمي الطيبة وعالم الشيخ الزرقا.

وصلنا شواطئ أميركا الجنوبية، فأفهمونا أن علينا أن نعبر الغابات الكثيفة وننتظر الليل كي ندخل حدود الأرجنتين بسرية إذ لم يكن يسمح لنا بدخولها. كان السير في هذه الأدغال مخيفا وكنا دائمي الحذر من أن نجد دبا أو أسدا أو غيرهما من الحيوانات المتوحشة يلتهمنا ونحن لا نملك أي سلاح سوى العصي التي قطعناها من أشجار الغابة. وفجأة ظهر لنا ثعبان ضخم جدا يبلغ طوله عشرة أمتار، ورأسه أكبر من حجم رأس الإنسان بعشرة أضعاف. هجم على أحد الرجال وبدء ببلعه وهو يصرخ ولا أحد يجرأ على إنقاذه. تسمرنا في مكاننا ولم ندر ما نفعل. تكلم قائد المسيرة بصوت خافت وهادئ وقال لا تتحركوا من أماكنكم واخلدوا إلى السكون التام، فقد يكتفي هذا التنين بهذا الرجل ويترككم إن أسعفكم الحظ. كنا نسمع دقات قلوبنا ونحن ننظر إلى هذا المنظر المخيف ونشعر بالهلع من أن يأتي دورنا فتكون نهايتنا كنهاية الرجل الذي يبتلع أمام أعيننا. اكتفى التنين بالرجل وذهب بعيدا فتنفسنا الصعداء، وحان وقت الليل فتسلقنا الأشجار الباسقة، وبتنا على الأغصان، ولم ندر أكنا في عالم الخيال أم الحقيقة فقد كان الواقع أبعد من الخيال. أصبح النهار فتابعنا طريقنا، وعند الغروب بدت لنا مدينة بونس آريس. فحمدنا الله على وصولنا بالسـ مة. وتوجهت أبغي عنوان ابن عمي عادل كي أجد الذهب والعزة والأمان عنده.

كنت شابا جريئا لا يهاب الصعاب وكأني كنت دائما متأكدا من النجاح في أي مهمة توكل لي وأني كنت أتخطى أي صعاب تعترض طريقي. سألت كثيرا ولم أكن أعرف اللغة الاسبانية بعد، فكنت أشير بيدي وأري من أسأله الاسم المكتوب بالأحرف اللاتينية على الورقة كما كنت أستعين ببعض المفردات للغة الفرنسية التي تعلمتها في المدرسة. وأخيرا وصلت إلى بيت متواضع يكمن في أحد الأزقة الشعبية، وكانت المفاجأة. لم يكن ابن عمي مالكا لشركة الذهب، بل كان عاملا في أحد المطاعم يجلي الطباق ويعيش على الكفاف. وصلت متعبا منهك القوى بعد السير على الأقدام مدة يومين بدون نوم والذعر الذي انتابني من الأهوال التي لاقيتها في الغابة. طلبت منه فراشا أنام عليه، وبت على ذلك حتى الصباح، فأيقظتني دموع عادل الذي كان يبكي خوفا علي من هذا المصير الذي آل هو إليه.

قال: ماذا جاء بك يا ابن العم، أنت في نعمة بلدك لن تجدها في الغربة هنا. ستواجه الذل والفقر والعذاب هنا. لماذا جئت... ليتك لم تجئ...!

قلت باستغراب: ماذا تقول...! أليس لديك منجم ذهب...؟ ألست غنيا تملك المال الوفير...؟
قال: لا بل أنا مجرد أجير أعمل في تنظيف المطعم وغسل الطباق.

لم أكن من النوع الذي يستكين وتحبطه الأحداث مهما عظمت، ولم أكن أستسلم للأقدار، بل كنت أؤمن أن الله منحني القوة كي أغير الأحداث لصالحي. فلا بد من إيجاد الطريق إلى المجد والشهرة.

قلت: أنا لا اهزم أمام العوائق. فقد منحني الله تعالى عقلا أستطيع أن أتخطى الصعاب بقدرته تعالى مهما عظمت. وسترى إن شاء الله ماذا سيفعل ابن عمك عارف.

قال: وا أسفاه، أتترك عزا وجاها في بلدك وتأتي كي تذل هنا. أنت من عائلة محترمة وكان لديك الفرصة في النجاح في بلدك بدل البهدلة والهوان الذي أعانيه أنا هنا. على أية حال، اعتبر بيتي بيتك وأنت في ضيافتي، وأرجو أن تبدل رأيك وتعود إلى وطنك عما قريب.

قلت: لا عليك. سأتدبر الأمر.

نهضت في الصباح الباكر وبدأت أسير في الطرقات أستطلع المدينة. سجلت في معهد لتعلم اللغة الاسبانية، ونجحت فيه بتفوق واستطعت أن أتكلم الاسبانية بطلاقة في مدة ثلاثة أشهر فقط، كنت أعمل خلالها في تنظيف مطبعة قريبة من بيت ابن عمي أكسب منها النقود كي أغطي مصاريف دراستي للغة ومصاريف معيشتي. كنت رجلا أحب مخالطة الناس، وكان هذا سببا في تعلمي اللغة بهذه السرعة. وخلال تنظيفي للمطبعة كنت ألاحظ كيف تسير الآلات، وكيف تطبع الأوراق.

بعد نجاحي في تعلم اللغة، بدأت أقرأ في الجريدة اليومية عن وظائف شاغرة وحددت اهتمامي بالمطابع. فكنت أنتقل من مطبعة لأخرى كلما ازدادت خبرتي في الطباعة وتعلمت كل ما يتعلق بالطباعة. وكنت أتدرج من عامل بسيط إلى مرتبة أعلى حتى صممت أن أكون رئيسا للمطبعة بأكملها. كنت قد قرأت في الجريدة عن طلب رئيسا لمطبعة كبيرة يجري فحص المتقدم في الصباح التالي، والذي يأتي أولا يقدم للمقابلة في الأول.

ذهبت إلى المطبعة في الساعة الثانية عشر ليلا ونمت على بابها كي أكون أول من يدخل للمقابلة. لم أكن ضخما وكان يبدو علي صغر السن. استيقظت صباحا فرأيت طابورا من المتقدمين كلهم في الأربعينيات أو الخمسينيات. لم يكن هناك أحد في سني. فتح الباب في الساعة الثامنة، ونظر المسئول وطلب الشخص التي يليني أولا. قلت: أنا جئت قبله. فنظر إلي نظرة المستخف وقال: أنت لا زلت صغيرا لمثل هذه المناصب، فنحن نريد رجلا محنكا يعلم كي يسير الأمور بنجاح ودقة، ولا أعتقد أنك تستطيع فعل ذلك. وعلاوة على ذلك، ففي المطبعة عطلا لم يستطع أحدا حتى الآن معرفة مصدره.

قلت: إن أصلحته ونجحت في المقابلة، هل توظفني في هذا المركز؟

قال: نعم بالطبع. ولكني أراهنك أنك لن تستطيع أن تنجح.

دخلت إلى المطبعة وفي قلبي يقينا ثابتا أن الله معي وسيهديني كي أصلح هذا العطل. كنت لا أخرج من بيتي إلا بعد أن أصلي لله ركعتين وأطلب منه العون وأتوكل عليه في كل أموري.

وساعدني المولى الجليل في إصلاح العطل وعينت مديرا لهذه المؤسسة، ودفعوا لي مبلغا كبيرا من المال، أوراق نقدية كثيرة لا تعد. ذهبت إلى ابن عمي وأريته النقود الكثيرة التي لم تكاد تحتويها يداي.

نظر إلي عادل بشذر وغضب وقال: هل جئت إلى هذه المدينة كي تكون سارقا أم سلكت طريقا غير محترما لا يليق بعائلتك الكريمة. كيف حصلت على هذه الأموال؟ لا يمكن أن تحصل عليها وأنت عامل بسيط في المطبعة.

قلت مطمئنا: يا عادل، لا تظن ظن السوء بي، فأنا فعلا كسبتها من عرق جبيني. ثم سردت له القصة فتعجب من ذكائي وحيلتي وهمتي.

بعد أن أصبح لدي المال الوفير بدأت أرسل لأمي النقود ولكني لم أتمكن أن أرسل لها رسالة. كنت كلما بدأت بكتابة الرسالة، تنهمر الدموع من عيني وأتذكر شوقي لها ولأخواتي قدرية و نظمية، فأبكي طويلا ولا أستطيع إكمال الرسالة، فاكتفيت بإرسال النقود ولم أرسل لها أي رسالة. كنت شابا عاطفيا وحساسا لدرجة أن عواطفي كانت تستولي علي، وتعيقني عن الكتابة.

كنت مرة سائرا في طريقي إلى العمل، فرأيت فتاة جميلة كانت في نظري كالشمس الساطع. وكان هذا شعورا طبيعيا لمراهق في مثل سني. كان الحب شعاري ومبدأي. فقد أحببت ربي منذ أن بدأت أعي حقيقة الحياة، أحببته لأن أمي والشيخ الزرقا نورا بصيرتي ودلاني على طريقه. فتعلمت الحب، فأحببت أمي وأخواتي، وبلدي ووطني. لكن هذا الحب الجديد كان شعورا جديدا علي.

سألت ابن عمي عادل: عادل، هل سبق لك أن أحببت.

قال: لماذا يا عارف، هل وقعت في الحب؟

قلت: نعم لشوشة أذني. أنا أعشق هذه الفتاة التي تدعى رولا والتي أصادفها كل يوم في طريقي إلى العمل. وقد سألت عنها، فقيل لي أنها لا ترغب في الزواج، فهي تنوي أن تدخل الدير وستصبح راهبة.

قال: كيف تتزوج فتاة لا ترغب فيك، ولا سيما أنها من غير دينك، فأنت مسلم وهي مسيحية، وتبدو متعصبة لدينها حتى أنها تود أن تصبح راهبة!

قلت: الحب لا يعرف الحواجز. وسأذلل الصعاب التي تعترض طريقي إن شاء الله.

هز عادل رأسه تعجبا ويقينا أنني لن أستطيع فعل ذلك.

فكرت في طريقة استجلب بها قلب هذه الفتاة الصعبة المراس. وكان من عادتي الذهاب إلى المطبعة بالدراجة. فركبت دراجتي وجريت بسرعة كبيرة وسبقتها ثم أوقفت الدراجة بسرعة مما جعلني أتدحرج على الأرض أمامها. فشعرت بالشفقة علي وأسرعت بإسنادي كي تساعدني على الوقوف وترى ما حل بي، وخاصة بعد أن مثلت دور المتألم، المتكسر الأضلاع. تظاهرت بالإغماء فعانقتني كي تنهضني وعانقتها وكان أن "السمكة قد وقعت في شباك الصياد".

لم يكن شيء ليرهبني ، ولم يكن شيء يعوقني عما أريد. كان من الممكن أن أتكسر فعلا، وكان من الممكن أن لا تأبه لي، ولكني نفذت الخطة و نجحت. تعددت اللقاءات وطلبتها من أهلها وتزوجنا. عرضت عليها الإسلام فرفضت فهي تؤمن بدينها لدرجة أنها كانت ستكرس حياتها من أجله وتعتكف في الكنيسة.

مضت خمسة أعوام بعد زواجي من رولا ولم ننجب أطفالا. كانت تحبني حبا جنونيا وكانت تغير علي كثيرا حتى أني عندما كنت أذكر أمي وأخواتي وأعبر عن شوقي لهن ولهفتي على أخذهن بالأحضان، كانت تبكي من غيرتها وتقول: أنت تحبهن أكثر مني. كنت قد بلغت الحادية والعشرين من عمري. وفي يوم من الأيام وصلتني رسالة من أمي عن طريق السفارة تعلمني أنها مريضة مرضا خطيرا وأنها على فراش الموت وتود أن تودعني قبل أن تموت.

كانت الأيام تجري بي وحبي لرولا شغلني عن أهلي، بالإضافة إلى أني لم أعد أحاول كتابة أي رسالة لهم بعد محاولاتي وفشلي في الكتابة بسبب بكائي الشديد. كنت بالطبع مخطئا، فقد كان بوسعي أن أدع عادل على الأقل يطمئن أمي علي . شعرت بعذاب الضمير والندم يقطع قلبي وقررت العودة لأمي التي أهملتها حتى قاربت على الموت.

كان هذا اختيارا صعبا علي، إما أن آخذ رولا معي إلى عالم يختلف كليا عن عالم الأرجنتين، وهي ليست على ديني، وتغار علي غيرة شديدة لم أكن لأستحملها إذا ذهبت لأهلي ورأت عواطفي الجياشة وشوقي إليهم، فقررت أن أترك رولا في الأرجنتين وأعود إلى أهلي وحيدا. فصعبت لها العيش وقلت لها أن أهلي يعيشون في القرية وأنهم يجبلون زبل الحيوانات ليصنعوا منه البيوت، فرضيت أن تبقى في بلدها خوفا من عدم تحمل شظف العيش في سوريا.

الفصل الرابع

الرحلة إلى الوطن

كان الفراق صعبا علي وعلى رولا، ولكن كان لا بد منه. لا أعلم كيف أصف نفسي، كنت شديد التعلق بالأشياء والأشخاص، وسريع التبدل في العواطف، لا أدع قلبي يسيطر علي إن كان اقتراح العقل أفضل. بدأت السفينة بالإبحار وتوكلت على ربي في بدء هذه الرحلة متذكرا الأوراد التي علمني إياها الشيخ الزرقا بعد صلاة ركعتين لله تعالى. عندما وصلنا إلى وسط المحيط الأطلنطي. أعلن البحارة عن وجود ثقب في قاع السفينة ،أسرع الركاب لامتطاء قوارب النجاة وكان الفزع والخوف والبكاء يحيط بي من كل جانب. كانت الجرأة التي وهبني إياها خالقي أكبر من كل شيء يدور حولي. عندما أتذكر هذه اللحظات فيما بعد، أتعجب أنا نفسي من نفسي الجريئة التي جرأتها ليس لها حدود. وبدل أن امتطي قارب النجاة نزلت من البحارة كي أساعدهم في رتق الثقب الذي كان في قاع السفينة متذكرا قول الشيخ الزرقا اعمل الخير وارميه في البحر، وتذكرت قول الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن يؤذونني بشيء لم يكتبه الله لي، لن يستطيعون. وكنت على يقين أن العمر محتوم، والرزق محتوم، والمقدرات مكتوبة منذ الأزل عند الله تعالى، ولا بد من تنفيذها.

علمت فيما بعد أنه عندما علمت أمي عن عزمي على العودة وعبوري للأطلنطي، كانت تبات كل ليلة تقرأ فواتح للنبي صلى الله عليه وسلم وللأولياء وللتابعين كي يحميني الله من المخاطر. ومرة رأت في المنام الذي صادف تماما خطر ثقب السفينة، أن طابورا من الأولياء ذوي العمامات الخضر بركبون الأحصنة ويحيطون بي يمنة ويسارا ويقولون لها: اطمئني يا أيتها الأم الحنون والمرأة الصالحة، سيصل إليك سالما إن شاء الله. فلا تقلقي أبدا.

الفصل الخامس

في الوطن

وصلت إلى حلب وكان اللقاء بعد سبعة أعوام من الشوق والقلق والبكاء. اطمأن قلب أمي برؤيتي وعانقتني طويلا هي وأختاي، قدرية ونظمية، وفرحت بهما إذ أصبحتا شابتين يافعتين. تزوجت أختي قدرية من ابن عمها وأصبحت أختي نظمية شابة جميلة يطلبها الخطاب. أخبرتني أمي أنه كان لابد من إرسال مثل هذه الرسالة كي أرد عليها وتطمئن علي.

بعد أن اطمأن الشوق وهدأت العبرات، نظرت في ركن الغرفة فرأيت سريرا صغيرا ترقد عليه طفلة لم تبلغ الأربعة أشهر من عمرها، فقلت: لمن هذه الطفلة. قالت أمي: هي أختك.

كانت مفاجئة مؤلمة لي، فغضبت غضبا شديدا وكدت أودي بحياة أختي الصغيرة التي لا ذنب لها. ولكن حبي لأمي ورغبتي في إرضائها جعلني أكتم غيظي، فسألتها: هل تزوجت بعدما سافرت.

قالت: وماذا تتوقع من امرأة ليس لها معين إلا الله أن تفعل، ومع ذلك فأنا لم أتزوج برغبتي وليس لدي رغبة في الزواج. أنا يا ولدي أسير في هذه الحياة أقوم بما كتبه الله علي حتى أصل إلى نهاية المطاف فأكون قد أديت الأمانة التي أرجو أن أكون ناجحة فيها.

قلت: أمي أنت الزاهدة العابدة التي هي من نسل الأولياء تتزوج للمرة الثالثة...! لماذا ... وكيف حصل ذلك...؟ أخبريني بالله عليك. لم أعهدك كذلك. لماذا تزوجت...؟ كنت تعملين في التطريز وكنت أرسل لك النقود كي تعيشي حياة كريمة... لماذا تزوجت...لماذا؟

قالت: قدر الله تعالى يا ولدي قد نفذ. كنت كما تعلم أتابع أمور التركة فأهل أبيك سببوا لي المتاعب الكثيرة وكان لا بد من الالتجاء إلى المحكمة كي أحصل على حقي من التركة. تعرفت على قاض في المحكمة اسمه أحمد بيك، استمع لحالي وكانت له زوجة تركية تكبره بعامين ولا تنجب، فأراد أن يكون له نسلا قبل أن يموت بعد أن علم أني قد أنجبت. وعرض علي الزواج سرا كي لا تعلم زوجته بذلك لأنها كانت مجنونة في حبه ويمكن أن تقتلني وتقتله. قال إنه سيساعدني في أمور التركة ، ويمدني بالمال ويربي أولادي ووو ... . فرفضته رفضا باتا وفضلت العيش الضنك عن الزواج به لعدة أسباب. أولا كان رجلا يؤلف الشعر ويضرب على العود ويشرب الخمر، وأنا لا أحب هذا النوع البعيد عن الله.

قلت: إذن كيف حدث ذلك؟

قالت: رأيت في ما يرى النائم أني أركض حول القلعة ورجل سكران يلحق بي، فإذا بأبي يظهر أمامي ويقول لي: تزوجيه يا ابنتي، تزوجيه. رأيت هذا المنام ثلاث مرات، وفي كل مرة كان أبي يعيد علي نفس العبارة. فعلمت أنه مقدر من الله تعالى ولا أعلم خيره الآن. فتزوجته وعانيت الكثير من زوجته التي حاولت قتلي والهجوم علي وضربي ضربا مبرحا في الشارع، ولكن الله سلم وقد قدر الحياة لهذه الطفلة التي سميتها ملك لتكون كالملاك في الطاعة، طاعة الله وطاعة والديها.

كان رضا أمي يعني الكثير لي، فرضخت للواقع وبدأت حركات الطفلة الصغيرة تلعب بأوتار قلبي فأحببتها وربيتها كابنتي تماما، وسعيت إلى إسعادها ما استطعت وشجعتها أن تكون امرأة متعلمة صالحة مأدبة وكانت كذلك.

سردت على أمي ما جرى لي في المهجر، وأخبرتها عن رولا وما جرى لي معها. فقالت: إن كنت تريدها فأرسل لها تأتي وتعيش في بلدنا، فهي تحبك.

قلت: نعم إنها تحبني ، ولكنها لن تستطيع العيش في هذا البلد الذي يختلف كثيرا عن عادات وتقاليد بلدها، وخاصة إنها متمسكة بدينها ولم تقبل أن تغير عقيدتها.

قالت أمي: يفعل الله ما يشاء، إذن أخطب لك فتاة من بلدنا. قلت: على شرط أن تقبل أن تعيش معنا، فقد كانت جدتي كوكب تعيش معنا بعد أن توفي زوجها الشيخ الزرقا.

جاء الزوار من العائلة يسلمون علي ويسألوني عن أخبار رحلتي والحياة في الأرجنتين. كان من ضمن الزوار ابنة عم لي تدعى أمينة. كانت جميلة ورقيقة ومهذبة، فشغفت بها وطلبت يدها. بارك أهلها وأهلي هذه الخطبة، ولكن أهلها اشترطوا أن أترك أمي وجدتي وأعيش معها في بيت آخر.

قلت: كيف أترك أمي وجدتي...؟ لا لن أفعل، ففضلت واجبي على قلبي وعشت ألم الحب بعد أن أحببتها من كل قلبي ودام حبنا حتى آخر لحظة من حياتنا. تزوجت بامرأة أخرى فيما بعد وهي تزوجت من رجل آخر، ولكن كلما التقينا كنت أشعر بأن روحي كانت ملازمة لروحها وكان لديها نفس الشعور الذي كنت أشعر به.

<u>الفصل السادس</u>

<u>في فلسطين</u>

بدأت أحداث فلسطين وبدأت اليهود يفدون من أقطار العالم للاستيطان في فلسطين. وهب الشباب المؤمن بعروبته ودينه للذود عن هذه الأرض المباركة الذي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم. استأذنت أمي للذهاب إلى فلسطين كي أكون مجاهدا لعل الله تعالى يرزقني بالشهادة، وكان قرارا صعبا عليها.

قالت والدموع تملأ عينيها: يا ولدي ، كم كان شوقي إليك عند غيابك في الأرجنتين، والآن تريد أن تغيب عن ناظري وتمرق قلبي. ليس لدي سواك. وأنا سأموت إن قتلت في فلسطين.

قلت: أماه... أنت من علمتني الاتكال على الله تعالى، وأنت من علمتني أنه لن يصيبنا إلا ا كتبه الله علينا، فأين إيمانك القوي الذي كنت تعلميني إياه. قالت: على بركة الله يا ولدي... فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين.

اتصلت بالمخابرات العربية السورية وعرضت خدماتي عليهم، فأنا أجيد الاسبانية، وكنت قد تعلمت في المهجر عدة لغات أخرى والتي هي فروع اللغة الاسباني كالإيطالية وغيرها. وأنا أعرف الفرنسية، وتعلمت التركية والانكليزية وهي اللغة التي تساعدني في مهمتي إذ إن الانكليز كانوا محتلين لفلسطين تمهيدا لمساعدة اليهود في الاستيطان. حضروا لي جواز سفر

باسم "الفريدو"، وذهبت لفلسطين وأنا أزعم أني يهودي ابن يهودي، وأني لا أعرف إلا اللغة الاسبانية. وأنا مهاجر من الأرجنتين وأن هدفي هو الاستيطان في فلسطين. وكنت قد درست الديانة اليهودية وتعمقت فيها حتى أستطيع أن أقوم بدوري بإتقان وبراعة.

وهكذا كنت أجلس معهم وأعرف أفكارهم وأنقلها إلى المخابرات العربية وأعلمهم عما يخططه اليهود. وتعلمت اللغة العبرية بسرعة فائقة، فالله تعالى وهبني حب التعلم وسرعة التلقي والفهم. وكنت مرة جالسا مع حاخام وأسرته، فبكى بكاء شديدا حتى ابتلت لحيته. فسألته عن سبب بكاءه. فقال: يا بني سننجح في الاستيلاء على فلسطين، وسيرتفع علم إسرائيل عاليا، وسنهزم العرب . ولكن بعد هذا النصر، سيأتي الانهزام. وسيأتي اليوم الذي فيه ينتصرون علينا ويرموننا في البحر.

عشت في فلسطين مدة أربعة أعوام أساعد العرب بأقصى ما أوتيته من ذكاء وخبرة، ولكن الوضع كان يتدهور يوما بعد يوم. وهبني الله تعالى الحاسة السادسة. فكنت أشعر بالخطر قبل أوانه. فمرة كنت جالسا مع رفيقي العربي نشاهد فيلما سينمائيا، وفي نصف الفيلم قلت لصاحبي: هيا نخرج من هذا المكان. قال: لماذا، فنحن في حبكة القصة ولم ينته الفيلم بعد. قلت: أسرع أرجوك. لا أعلم لماذا أريد أن أخرج من هنا. فخرجنا بسرعة، وكانت المفاجأة أن السينما فجرت بأكملها ولم ينج منها أحد.

ومرة كنت أقود سيارتي في طريق جبلي معوج ذات وديان شاهقة الغور، فشعرت أن علي أن أوقف السيارة. توقفت قليلا وفتحت مقدمة السيارة فإذا بالنار تنطلق من المحرك ولولا توقفي لانفجرت السيارة براكبيها.

وكنت مرة في معركة ضد الانكليز ، نتسلق التل ونرمي العدو بالرصاص والقنابل. وكان بجانبي صديقي أحمد، فقلت له: أحمد أنا أشعر بنعاس يستولي على كياني. لن أستطيع أن أقاوم. سأنام.

قال: هل جننت...! القنابل والرصاص ينهمر علينا كزخ المطر وأنت تريد أن تنام.

قلت: الرصاص مرصود وأنا لن أصاب إلا إذا كانت هذه إرادة الله تعالى.

فتقدم صديقي خطوتين إلى الأمام فإذا به يطير في الهواء ويقع قتيلا.

غلب علي النعاس ولم أفكر أبدا أن ما أصابه يمكن أن يصيبني. استيقظت فإذا بي أسمع دوي الرصاص . فنظرت يمنة ويسرة فرأيت التراب وكأن المطر ينهمر عليه، ولكن لا وجود للمطر. ما هذا يا رب...؟ تحركت فجأة نحو اليمين لأرى ماذا يجري، فإذا بخنجر البندقية يغرز في المكان الذي كنت أرقد فيه. وإذا بجندي انكليزي يقول لي ما هذا...! هل أنت بسبع

أرواح. إننا نطلق عليك الرصاص منذ ساعة ولكنك لا تزال حيا، وأحاول أن أغمد الخنجر في جسدك فتخلو فجأة وتنجو...! من أنت...؟

قلت: أنا ألفريدو من الأرجنتين. فتركني وشأني.

خلال حياتي مع اليهود تعرفت على فتاة من عائلة يهودية، فأحبتني كل الحب، ولا أعرف كيف علمت أني مسلما، ربما كانت تراقبني ورأتني مرة أصلي لله تعالى. فعرضت علي الزواج بها وقالت لي: أنا أعرف أنك لست يهوديا، وأنا أحبك كثيرا. مالنا ومال هذا الأخطار في هذا البلد. دعنا نسافر إلى الأرجنتين ونبني أسرة هناك ونقضي بقية عمرنا مع بعض في سلام.

كان كشفها لسري مفاجأة لي، اضطررت بعدها للعودة إلى الوطن وإيقاف مهمتي بعد أن خشيت أن ينكشف أمري عند العدو.

الفصل السابع

العودة إلى الوطن

كان فرح أمي بعودتي لا يوصف. وخاصة بعد أن قطعت الأمل في عودتي وكانت تعتقد أنني لابد سأموت شهيدا. بدأت أعمل كي أعيل أسرتي ، أمي وأخواتي الثلاث، وجدتي، إذ أن زوج أبي لم يكن يستطيع عندئذ أن يبقى مع أمي بسبب زوجته المتسلطة. ولم يستطع العيش معنا إلا بعد وفاة زوجته. فعاش معنا بعدئذ وكنت أرضيه كي أحصل على رضاء أمي. وفعلا لم تكن أمي المرأة المزواج. كانت صوامة، قوامة، زاهدة. ليس لديها إلا ثوبين، تغسل الثوب وتلبس الآخر . وكنت ألح عليها أن أشتري لها الثياب وكانت ترفض رفضا باتا أن تغير من زهدها. كانت رحمها الله تقول: ولدي، اللقمة كالعشرة، والثوب كالعشرة، والحذاء كالعشرة، والولد الصالح كالعشرة.

كان لنا جيران طيبين، فقالت لي مرة: لم لا أخطب لك أميرة بنت الجيران.

قلت: دعيني أراها حتى أقرر ذلك. فانتظرتها وهي خارجة مع عائلتها ففوجئت أنها نسخة ثانية من زوجتي رولا الأرجنتينية. فقد كانت تشبهها في الشكل كثيرا. فطلبت يدها وتم الزواج المبارك بعد مدة قليلة من الخطبة.

وشاء الله تعالى أن يثبت لي أن اختياره هو الأفضل. فعندما مرضت أمي مرض الموت وكانت في حاجة للدواء، كانت حالتي المادية متدهورة جدا حتى أني لم أستطع أن أطبب أمي، وكانت أختي ملك قد عينت بعد تخرجها من الجامعة مدرسة في التربية، فقامت بواجبها

نحو أمها وأبيها حتى آخر لحظة من حياتهما، جزاها الله عني أفضل جزاء. فعلمت أن الله تعالى أمر أمي أن تتزوج القاضي أحمد بيك عن طريق أمر والدها الذي ظهر لها في المنام كي تخلق هذه الطفلة وتصبح مدرسة تستطيع أن تعيل أمها وأباها. ماتت أمي في يوم الجمعة عند الأذان بعد أن قالت في الصباح لأختي: سأغادر اليوم عند الأذان، فلا تجزعي، ورتبي البيت وحضريه لهذه المناسبة وادعي لي أخيك وأخواتك كي أراهم قبل الرحيل. وهكذا كان. رحلت في يوم الجمعة عند الأذان، رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه.

الفصل الثامن

أميرة (1920-1992)

والآن لنترك الكلام للزوجة الصالحة أميرة كي تعرفنا بما جرى. ظهرت أميرة على مسرح الأحداث. وخاطبت الجمهور المتلهف لسماع نهاية هذه القصة المليئة بالأحداث المثيرة. وكذلك كانت كلماتها تترجم إلى عرض تطبيقي للأحداث على شاشة المسرح، فيراها المشاهد فيلما متحركا وتعليقا من الشخصية التي تروي الأحداث.

قالت أميرة: كنت في الرابعة عشر من عمري عندما زوجني أهلي لرجل شامي عمره أربعون عاما ويشكو من مرض القلب. فحملت منه ابني جلال، الذي كان في بطني سبعة أشهر عندما توفي والده. عندما بلغ جلال الخامسة من عمره، خطبني عارف. فتوسمت فيه الطيب والكرم والحنان لي ولولدي، وفعلا كان كما توقعت. أحاط ولدي جلال بحنان الأب المرشد الرءوف، حتى أن أهل ابني طلبوا منه العيش معهم فرفض. ومرة عندما أخذوه عنوة ليعيش معهم، هرب من دمشق وعاد ليعيش معي ومع زوجي. أنجبت خمسة بنات وصبيان، والحمد لله أنهم نشئوا نشأة صالحة وكان زوجي يحثهم على الدراسة الجامعية ويريد أولاده أن يكونوا مثقفين ذو مركز مرموق في الحياة.

كان زوجي كريما سخيا إبراهيميا في سخائه. كان لا يريد أن يأكل طعاما إلا إذا دعا الفقراء إلى مشاركته. كان عطوفا حنونا على أولاده. لا يأكل حتى يشبع أولاده، وكان يرشدهم إلى طريق التوكل على الله تعالى في كل الأمور، والثقة بالله تعالى وأن ما يجرى لنا من الأقدار، خيرها وشرها هي خير لأنها من الله تعالى. علم أولاده التسليم والرضا، الأدب وعزة النفس، تحكيم العقل قبل القلب، وبأن العواطف يجب أن يحكمها العقل وليس العكس. كان حكيم العائلة، عالما بمجرى الأمور وخفايا النفوس. كان يقرأ الأفكار ويتنبأ بالأحداث قبل حدوثها.

مرضت مرضا شديدا وأصبحت عاجزة في الفراش لا أستطيع فعل شيء، فلازمني حتى توفاني الله تعالى وكان يعاملني معاملة الطبيب لمريضه، ومعاملة الأم لابنها، ومعاملة الحبيب للحبيبة.

كان صديقا لأولاده. استعمل أسلوبا عجيبا في زرع الثقة في قلوبهم، الثقة بالله تعالى، والثقة فيه. فكان نعم المرشد ونعم الصديق لهم. جعلهم متعاطفين معه في أزماته، يشاركونه أفراحه وأتراحه، و يحبون بعضهم البعض ويؤثرون بعضهم البعض ولو كان بهم خصاصة. كان حقا أبا مثاليا . علم أولاده الصدق، والإخلاص، والاستقامة، والأمانة وذلك أن جعلهم يوقنون أن الله معهم يراهم من حيث لا يرونه وهو شاهدا عليهم في كل حركاتهم وسكناتهم. كان شعاره: "كن مع الله ولا تبال" . علمهم الشجاعة والإقدام وعدم الخوف من أي شيء. فكانوا لا يخشون إلا الله تعالى. الموت عندهم كالحياة، فقد أقنعهم بأن الموت هو استمرارا حقيقيا للحياة في عالم أفضل من عالمنا وأن ما عند الله خير وأبقى. جعلهم لا يخشون المرض، فهو يكفر الذنوب ويرفع الدرجات، وهو من المقدرات التي يجب أن نرضى بها كركن من أركان الإيمان. علمهم الكرم وأقنعهم بأن إطعام الطعام يزيد في البركة ويكثر الثواب وأن كل لقمة مقدرة مسبقا للشخص الذي سيأكلها في اللوح المحفوظ. منذ الأزل، وبمعنى آخر، علمهم التسليم والرضا والقناعة والغنى عما في أيدي الناس، وأقنعهم أن رحلة الحياة مؤقته وكل رزق فيها مقسوم من الأزل، فلماذا التزاحم على الرزاق، ولماذا الحسد على النعم، ولماذا الاعتراض على مشيئته تعالى...!

كان يبكي أحيانا مرددا الآية الكريمة: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً {23} الأحزاب. كان ينتظر أن يلقى وجه ربه وهو راض عنه، ويقول: كنت أتمنى لو أموت شهيدا في فلسطين، ولكن الله شاء أن أعود وأقوم بدور آخر خططه لي الله تعالى". وفي عام حرب (1973)، ذهب فعلا لقيادة الجيش وعرض خدماته عليهم كما عرض أن يكون في الصف الأول من الجيش مع المجاهدين يدافع عن الوطن ويذب عنه الأعداء. فاحترموه وقدروا همته ولكنهم اعتذروا قائلين: يا عم، لقد أصبحت رجلا مسنا، فالآن جاء دورنا كي نرعاك ونحميك ونحمي الوطن.

كان مرحا دائم الابتسام. كان يعيش وكأنه لن يموت أبدا ، كما كان إيمانه بالله تعالى كأنه يموت غدا. كان دائم الحيوية، شعاره التفاؤل، وكان يبث هذا الشعور إلى محدثيه. فأحبه الناس، وأحبه أولاده وأحبه الله.

الخاتمة

بعد موته، رحمه الله، رئي في المنام وهو في بيت زجاجي كأنه مصنوع من ألماسة ثمينة واحدة وحوله حور العين وأمامه ما تلذ الأعين وتشتهيه النفوس من الطعام والشراب. وهكذا

كانت النهاية سعيدة والمكافئة كبيرة لمن كان دائما عين الله ترعاه وكان مع الله فكان الله معه.

فارقت زوجته الحياة قبله بأعوام، وعندما لحق بها ، التقيا على الحب عند صانع الحب وموجده، ليعيشا مـ ا في الحب ومع الحب الأبدي.

فاطمة نوال بازرباشي